

التكفير

-1-

ما دخل التكفير ساحة جهاد إلا أفسدها، ولا تسلط أهل التكفير على مركب جهاد إلا أغرقوه، إن التكفير هو أول خطيئة ولغ فيها الغلبة في تاريخ الأمة في أول الزمان وأعظم شر أحده شر الغلة في أرض الشام في هذا الزمان، وهو أصل فساد الجهاد وأول خطوة في الطريق إلى الهزيمة، فإنه لا يكون بعده إلا هرجٌ ومرجٌ. وما الهرج والمرج؟ إنه دماء وشقاء وفتنة ظلماء.

فمن أحب أن يُحيل ساحة الجهاد في الشام إلى ساحة فتنة واقتتال فإن أضمن وأسرع الطرق إليهما هو فتح باب التكفير، ولئن رضيه فريق من الناس فإن عامة أهل الشام لا يرضونه، وإنهم ليهتفون ويقولون: ليس مما وليس من ثورتنا من دعا إلى هرج ومرج، ليس مما وليس من ثورتنا من دعا إلى تكفير الناس.

إن هذا الباب لم يُفتح قط إلا هبَّ منه ريحُ شر، وإن أهل الشام قد صمّموا على أنه باب موصَّد لن يسمحوا بأن يُفتح عليهم أبداً إن شاء الله.

-2-

إن الحذر والتحذير والنقد والتشهير من لزوميات الثورة ومن أدواتها التي تحفظ لها عافيتها وتقيها من الضياع؛ الحذر والتحذير من الأخطار، ونقد الأخطاء وأوجه التقصير، والتشهير بالفاسدين والمتسلقين الذين يخفي أمرُهم على العامة، ليس تشفيًا بهم وانتقامًا منهم وإنما حمايةً ووقايةً من شرورهم، فلا مجاملةً لأحد على حساب الثورة، ولن نرضى بتقديم مصالح الأفراد على مصلحة العباد والبلاد.

ولكن الفرق كبير، كبير بين التشهير والتکفیر؛ الأول: يشبه طلقات تحذيرية في الهواء، أما الثاني: فإنه برمبل متفجر أو صاروخ بالستي مدمر، إنه حكم باستحلال الدم في الدنيا وحكم بالحرمان من رحمة الله في الآخرة، ومن يملك هذا الحق إلا الله؟

إن الحكم على أفراد الناس بالكفر والإيمان هو الذي سماه النبي صلى الله عليه وسلم "تأليلاً" على الله، وهو يكاد يكون من الكبار، ففي الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدث: ((أن رجلاً قال: والله لا يغفر لله لفلان، وإن الله تعالى قال: من ذا الذي يتأنى على أن لا يغفر لفلان؟ فإني قد غفرت لفلان وأحببت عملك)).

قد يقال إن ما يطلقه البعض من أحكام يدخل في باب تكفير الأعمال، وليس في باب تكفير الأعيان، ويقولون: إن هذا التوضيح مطلوب؛ لأنه من الدين، والجواب من وجهين:

أولهما: أن ميادين الجهاد تمتلي بالشبان الصغار الذين لا حظ لهم من العلم إلا أقل القليل، ولئن فرق العالم المتمكن بين الفعل وفاعله فإنهم لا يفرون، فعند عامتهم أن مرتكبا الفعل المكفر كافر بإطلاق، ولم أسمع إلى اليوم أن من أولئك الشبان من يحسن النظر والتذير في شروط التكفير وانتفاء الموانع، فإذا سمعوا أن الائتلاف والأركان وقعا في الكفر فإن النتيجة الفورية التلقائية عندهم أن كل عضو من أعضائهم كافر حتماً، وإذا كان كافراً فإن الحكم المترتب على كفره هو هدر دمه، فيتحول المجاهدون إلى قتلة ويصبح أعضاء الائتلاف والأركان أهدافاً مشروعة للاغتيال.

الوجه الثاني: إن أكثر ما يصدر من أحكام بالكفر في الفكر الجهادي المعاصر يرجع إلى أصلين، هما موالة الكفار والحكم بغير ما أنزل الله، وقد وجدها أن في قياس الفعل البشري على الأصل المكفر في الحالتين عنتاً وتتطعاً لا يرضاهما الراسخون الثقات من علماء الأمة. فقد ذهبت طائفة من الجهاديين إلى اعتبار أدوات الديمقراطية (الانتخابات العامة وتداول السلطة) شركاً بالله، واعتبار نظام الدولة المدنية حكماً بغير شرع الله، واستطاعت طائفة حتى جعلت الاتصال بدول الكفر موالة، وقبول الدعم والسلاح منها موالة، بل بلغ الأمر ببعضهم أن يجعلوا الصورة يتصورها المسلم مع الكافر موالة مكفرة! وفي ذلك كله مقال وتفصيل وأخذ ورد، فكيف تبني عليه أحكام قطعية هي من أخطر وأعظم الأحكام في الإسلام؟

قال صاحب "العقيدة الطحاوية": (وهي من أهم المتون المعتمدة عند أهل السنة والجماعة): "الإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان، ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه، ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله"، فالحكم بالكفر معقود على نية الاستحلال ومتربّ عليها، وإطلاقه على مرتكب الفعل المكفر الذي لم يستصحب نية الكفر لا يجوز، بل يوشك أن يقع فاعله في الكفر والعياذ بالله، لأن من كفر مؤمناً لا يستحق التكفير باء بالكفر كما ورد في الحديث الصحيح.

فلو أنها سلمنا بأن الاتصال بالكافر والمنافقين كفر (ولا نسلم) ولو أنها أفتينا بأن النظام المدني الديمقراطي شرك (ولا نفعل) فإن هذا إنما هو حكم على الفعل، وربما كان الفاعل متاؤلاً أو جاهلاً أو مضطراً، فمن أين لنا أن نطلع على نيته لنكفره؟ أنى لنا أن نشق الصدور ونحكم على النوايا؟

إن الحكم على النوايا من اختصاص الخالق فلا يطّلع على خفايا الصدور إلا هو، أما نحن فليس لنا أن نحاكم نوايا الناس ولا أن نحكم عليهم بجنة ونار. أخرج مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم: ((اتق الله)، فقال: وبلك، أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله؟ قال: ثم ولّ الرجل، فقال خالد بن الوليد: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه؟ فقال: ((لا، لعله أن يكون يصلي)). قال خالد: وكم من مصلٍ يقول بلسانه ما ليس في قلبه! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (وهنا الشاهد): ((إني لم أؤمر بأن أنقب عن قلوب الناس، ولا أشق بطونهم)).

ما لنا وللتکفير!! ألا يسعنا الأخذ على أيدي الفاسدين والتحذير من شرهم إلا بتکفيرهم؟ إننا نعلم أن في الائتلاف والأركان

فاسدين، وفيهم منتفعين، متسلقين اتخذوا من المعارضة السياسية مِرقةً لتحقيق المكاسب الشخصية، فلا يرُقبون في الشعب السوري عهداً ولا قُربى، وهؤلاء يتوجب علينا أن نتعقبهم ونفضح كنفهم وفسادهم وأن ننزع عنهم صفة المعارضة الوطنية ونرفض أن يكونوا ممثلين للشعب السوري ولثورته وجهاده، ولكننا لا نكفر المسلمين منهم لأنَّه فاسد، ولا يلزمنا التكفير لنطلاق عليه النفي ونشر بفساده غاية التشهير.

ثم إنَّ في إطلاق الحكم بتکفير المجلس والائتلاف جنائيةً على رجال من صالح المسلمين، ما علمنا عليهم إلا خيراً ولا نشهد إلا أنَّهم مسلمون مخلصون يريدون الخير للأمة والبلاد، وإنَّي أعرف فيهما بعض أفاضل الناس الذين يريدون (فيما أحسب، والله حسيبيهم) وجه الله وصالح الثورة، وقد قلت لأحدِهم مرة يوم عرض عليه مقعد في المجلس الوطني: أنصحك بالرفض لأنَّك تحرق نفسك، فالعمل السياسي محرقة لا ينجو منها أحد، فقال: "إنَّ المجاهدين يحرقون أنفسهم في ميادين القتال، فلماذا أضنَّ بنفسي عن الحرق في ميدان السياسة، ولماذا لا أجود بمستقبلِي للهدف نفسه الذي جادوا من أجله بأنفسهم؟ إذا كنت سبباً في تحقيق بعض الخير وتخفيف بعض المعاناة فـيكونني هذا عزاءً عما ألقاه من أذى".

وقد عرفته من بعد صادقاً لم يغيره المجلس ولم تفسده المناصب، ومثله العددُ العديد من "المجلسين" والائتلافيين، فكيف يستقيم أن نقول: إنَّ المجلس والائتلاف كيانان كافران على الإطلاق؟

-6-

أيها السادة الكرام: إننا ندعو إلى محاسبة المخطئين وإلى كشف الفاسدين والتشهير بهم وإقصائهم من موقع التأثير، فلنتعاهد على أن لا يسكت أحدٌ منا عن خطأ وأن لا يجامِل أحدٌ أحداً أبداً في الحق وفي الثورة، لا أخاً قريباً ولا خلاً حبيباً، أما التكفير فدعونا منه جملة ولا تفتحوا علينا باباً فإنَّه بابُ شرٌّ عظيم.

لقد رأينا كيف استهانت داعش بهذا الأمر الجلل حتى صارُّ العويبة يلعب بها الغلمان، فيحكمون على الرجال بالكفر والردة وأكثُرُهم لا يحسنون حل مسألة في الفرائض ولا يميزون بين السنن والواجبات والأركان في أكثر العبادات. فمن أراد أن يكون جزءاً من جهاد أهل الشام ويرجو لمشروعه القَبُول بينهم فلا يتسبَّهُنَّ بداعش، وليرفلق هذا الباب.

يا قادةَ الجهاد ويا أيها المجاهدون الكرام: أعيذكم بالله من فتنَة التكفير.

المصادر: